

قصيدة البردة للبوصيري: دراسة أدبية

محمد أبو الحسين*

Abstract

This study aims to discuss the concept of Qasidah Al-Burdah and its literary study. The objective of this study is to give a general idea about Imam Busayri and Qasidah Al-Burdah with a statement of its value in Arabic poetry. The study resulted that, the Qasidah Al-Burdah is one of the greatest poems written in praise of the Prophet Mohammad (PBUH). The poet himself says that he wrote this poem after he was attacked by paralysis. He then sought Allah's mercy at the intercession of the poem. He recited it time and again, prayed and asked for the intercession of the Prophet (PBUH). After that he saw in his dream the Prophet (PBUH) who touched and swabbed his face with his blessed hands and wrapped him in a mantle after which the poet recovered from paralysis. The thought of poem is derived from the poet's knowledge about the Prophet, his culture and Arabic and Islamic environment, along with some traditional concepts such as; Al-Ghazal and skill of eloquence. We find in this Qasidah the concept of the Islamic preaching and its purity,

* محاضر، قسم الدراسات الإسلامية جامعة شيتاغونغ، بنجلاديش.

supreme respect for the Messenger of Allah (PBUH), his Biography and most beautiful character. Busayri begins his Qasidah following norms classical Arabic poetry and warning himself about following Nafs and its desires before moving on to talk about the ethics of the Prophet and praising his qualities (PBUH). Then he praises the qualities of the Prophet and his congenital merits and sings of the birth of the Prophet and his miracles. He also describes the guidance of the Quran, and the Prophet's jihad. Then he pleads to the Prophet and seeks intercession from him. He concludes the Qasidah with a supplication and humble submission, presentation of needs, the recitation of Durood on the Prophet (PBUH) and the prayer for the Satisfaction of the four Caliphs, Ahle Bait, the Companions, Al-Tabain and the Pious. All this stylistic beauty indicates that the Qasida Al-Burdah is one of the highest poems in the Arabic poetry according to the views of most scholars and literary figures. But some defendants accused Busayri of hyperbole in his praise of the Prophet (PBUH) in his Qasida.

المقدمة:

تعتبر قصيدة البردة للبوصيري من أروع المدائح التي قيلت في الحبيب الأعظم سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم وقد تلقتها الأمة علماءؤها وقبل عوامها بالقبول الحسن ، حتى قيل: إنها أشهر قصيدة مدح في الشعر العربي بين العامة والخاصة. والقصيدة تتناول كثير من الخصائص الفنية من حيث ألفاظ الشاعر وتراكيبه الأسلوبية وصوره ومعانيه، والموسيقى، والجوانب التصويرية، و الملاحم الشعرية، وهذه الخصائص تفوقتها إلى أعلى درجات القصيدة وعدت في البديعيات في الشعر العربي، كما أن الشاعر قد اقتبس من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف ، والقصص الإسلامي، والسيرة النبوية المطهرة، وظهر

ذلك واضحاً في العديد من أبيات القصيدة. وقد انتشرت هذه القصيدة انتشاراً واسعاً في البلاد الإسلامية، وترجمت إلى اللغات العالمية: الفارسية، الأردوية، البنجالية، السنديّة، البنجابية، التركية، الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، وغيرها من اللغات، ويقول الدكتور زكي مبارك: (البوصيري - رضي الله عنه - بهذه "البردة" هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين، ولقصيدته أثر في تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق، فعن "البردة" تلقى الناس طوائف من الألفاظ والتعابير غنيت بها لغة التخاطب، وعن "البردة" عرفوا أبواباً من السيرة النبوية، وعن "البردة" تلقوا أبلغ درس في كرم الشمائل والخلال. وليس من القليل أن تنفذ هذه القصيدة بسحرها الأخاذ إلى مختلف الأقطار الإسلامية، وأن يكون الحرص على تلاوتها وحفظها من وسائل التقرب إلى الله والرسول عليه الصلاة والسلام⁽¹⁾. وعلى الرغم من أن بردة البوصيري لها هذا التبجيل والمكانة الأدبية، إلا أن علماء السلفية عابوا على القصيدة ما يرون أنه غلو في مدح النبي صلي الله عليه وسلم.

نبذة عن حياة البوصيري:

إسمه ونسبه ومولده:

هو شرف الدين أبو عبد الله محمد ابن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجي البوصيري، ولد بقرية دلاص إحدى قرى بني سويف من صعيد مصر، يوم الثلاثاء أول شوال 608 هجري، التي كان منها أحد أبويه، والآخر من بوصير، وكلتاهما بمديرية بني سويف، ونشأ بقرية بوصير القريبة من مسقط رأس، ولما كان أحد أبويه من بوصير الصعيد، والآخر من دلاص، فركبت النسبة منهما ف قيل: الدلاصيري، ثم اشتهر بالبوصيري، و قيل: ولعلها بلد أبيه فغلبت عليه، وأسرته ترجع جذورها إلى قبيلة صنهاجة إحدى قبائل البربر، التي استوطنت صحراء جنوبي المغرب الأقصى.⁽²⁾

حياته التعليمية:

نشأ البوصيري في العصر المملوكي ، وتلقى تعليمه في العديد من مدارس القاهرة، التي انتقل إليها، حيث تلقى علوم العربية والأدب منذ نعومة أظفاره فحفظ القرآن في طفولته، وتعلم على عدد من أعلام عصره، من أمثال: شيخه أبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي وغيرهما من العلماء والأدباء، كما تتلمذ عليه نخبة طيبة وعدد كبير من العلماء المعروفين، منهم: وأبوحيان أثير الدين محمد ابن يوسف الغرناطي الأندلسي، وأبو الفتح محمد بن محمد العمري الأندلسي الإشبيلي المصري، المعروف بابن سيد الناس، والعز بن جماعة وغيرهم من العلماء والأدباء، الذين اكتظت بهم مدن مصر خلال تلك الفترة، فبرع في الكتابة والأدب، وأجاد قرض الشعر البليغ الذي تجلت فيه مظاهر الجزالة والسهولة، وتميز بخفة الروح، والميل إلى الدعابة في غير الموضوعات الدينية.

حياته العملية:

وقد تقلب الإمام البوصيري في العديد من المناصب في القاهرة والأقاليم، قبل التحاقه بشيخه الشاذلي والمرسي، وعمل بديوان الإنشاء، وعانى الكتابة والتصوف، وياشر الشرقية مسقرا ببلبيس مديرا لها، وله مجموعة من الأشعار في وصف موظف الدولة، وسوء معاملاتهم للشعب، وسرقة أمواله، وأخذهم الرشاوي، ومن أشهرها قصيدته التي يقول في مطلعها:

نقدت طوائف المستخدمين فلم أري فيهمو حراً أميناً⁽³⁾

مساهمته في الأدب العربي:

نظم الإمام البوصيري الشعر منذ حداثة سنه، وله قصائد كثيرة، ويمتاز شعره بالرصانة والجزالة، وجمال التعبير، والحس المرهف، وقوة العاطفة، وأكثر ما اشتهر بمدائحه النبوية استعمال البديع فيها، كما برع في استخدام البيان، ولكن غلبت عليه المحسنات البديعية في غير تكلف؛ وهو ما اكسب شعره ومدائحه قوة

ورصانة وشاعرية متميزة لم تتوفر لكثير ممن خاضوا غمار المدائح النبوية والشعر الصوفي. ترك الإمام البوصيري عددا كبيرا من القصائد والأشعار ضمها ديوانه الشعري الذي حققه محمد سيد كيلاي، وطبع بالقاهرة سنة (1374هـ-1995م)، منها: قصيدته البردة الشهيرة بالكواكب الدرية في مدح خير البرية، والقصيدة المضريه في مدح خير البرية، والقصيدة الخمرية، وقصيدة ذخر المعاد، ولامية في الرد على اليهود والنصارى، نشرها الشيخ أحمد فهمي محمد بالقاهرة سنة (1372هـ-1953م) وله أيضا تهذيب الألفاظ العامية، وقد طبع كذلك بالقاهرة⁽⁴⁾.

وهنا يمكن أن نقسم شعره إلى قسمين أساسيين:

الأول: شعره الاجتماعي: الذي قاله في المديح والهجاء، والعتاب وشكوي الحال، وغير ذلك من أمور الحياة والعيش آنذاك، وتتجلي فيه مظاهر السهولة والسلاسة، ويتميز بخفة الروح، والميل إلى الفكاهة والدعابة، فاقترب به من الروح الشعبي لغة وتعبيرا، التي اشتهر بها بين شعراء عصره.

أما الثاني: فشعره الديني: الذي قاله في مديح الرسول صلي الله عليه وسلم، وجاء قويا رصينا، بدوي الصياغة، يميل فيه إلى إحتذاء الشعراء المتقدمين في أساليبهم وتعبيراتهم، والعديد من صورهم، المستمدة من حياة الصحراء والبادية، ولذلك كثر فيه ذكر العديد من أسماء بقاع شبه الجزيرة العربية المشهورة. ومن العجيب العجيب أن شعره في أغلبه لا يمتاز بجودة ولا بلاغة ولا بروعة كبيرة، ولكن مدائحه النبوية وحدها هي التي نالت من البيان والبلاغة أعلى نصيب، واستحوذت على قصب السبق في كل رهان، فتراه في هذه القصيدة العصماء-أعني البردة- قد استولت عليه النشوة وموهبة البيان من كل جانب، فأنطقته بهذه الحكمة الرائعة، وجعلت قوله رصينا جزلا، ولا بدع، فتناوله للمدائح النبوية هو الذي أهله لهذه البلاغة، ولذلك السمو في المعاني، وتلك الروعة والسحر من القول، وكان ذلك بمثابة العون والرعاية والمكافأة وشد الأزر من

سيدنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم له على حسن نيته وصدق عقيدته، وعمق إيمانه.

ثناء العلماء عليه

وبسبب تفوقه في شعر المديح النبوي، أثني عليه العديد من العلماء البارعين، و مؤرخي هذا العصر، فقال عنه ابن حجر الهيتمي في مقدمة " المنح المكية شرح الهمزية البوصيرية": (هو الشيخ الإمام العارف الكامل الهمام، المتفنن المحقق، البليغ الأديب المدقق، إمام الشعراء وأشعر العلماء، وبليغ الفصحاء وأفصح البلغاء).

وقال الشيخ ابن علان الصديقي في مقدمة كتابه "الذخر والعهده في شرح البردة": (أما بعد فهذا تعليق لطيف وترصيف قريب منيف على القصيدة المنبئة عن كمال المودة، المسماة بالبردة للعارف بالله العالم العامل المخبت الأواه، شرف الدين أبي عبد الله محمد ابن سعيد البوصيري أثابه الله).

وقال الشيخ الباجوري في شرحه على البردة: (ومن أجلّ الشعراء الإمام الكامل والهمام العالم العامل البليغ الأديب أشعر العلماء وأفصح الحكماء الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري اه)⁽⁵⁾.

وقال الشيخ بسام محمد بارود في حاشيته على " العمدة شرح البردة البوصيري" (ص 64-70) (إمام الشعراء، وشاعر الأئمة العلماء، بل هو الفرقد الوضاء الذي أنار الطريق إلى المدائح النبوية).

ومن مؤرخي هذا العصر، الذين أثنوا عليه ، فقال عنه ابن شاکر الكتبي: (وشعره في غاية الحسن واللطافة، عذب الألفاظ، منسجم التراكيب).⁽⁶⁾

كما أثني عليه العماد الأصفهاني، فقال (برع في النظم).

وقال فيه ابن سيد الناس (هو أحسن من الجزار والوراق)،⁽⁷⁾ ولاشك

أنهما من مشاهير الشعراء في عصر الممالك.

وفاته:

توفي البوصيري سنة (695هجرية) عن عمر بلغ 87 عاماً، ودفن قريباً من ضريح شيخه أبو العباس المرسي رضي الله عنه في شرق الإسكندرية أمام الميناء الشرقي بمصر.

قصيدة البردة: دراسة أدبية:

سبب نظم قصيدة البردة:

يقول البوصيري عن سبب نظمه لهذه القصيدة، فيقول: (كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، منها ما اقترحه عليّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، ثم اتفق بعد ذلك أن داهمني الفالج (الشلل النصفي) فأبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها واستشفعت بها إلى الله في أن يعافيني، وكررت إنشادها، ودعوت، وتوسلت، ونمت فأرأيت النبي فمسح على وجهي بيده المباركة، وألقى عليّ بردة، فانتبهت ووجدت فيّ نفضة، فقممت وخرجت من بيتي، ولم أكن أعلمت بذلك أحداً، فلقيني بعض الفقراء فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: أي قصائدي؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك، وذكر أولها وقال: والله إني سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأعجبته وألقى عليّ من أنشدها بردة. فأعطيته إياها).⁽⁸⁾ وهكذا شفي البوصيري من مرضه، بعد أن نظم هذه القصيدة، وعادت إليه كامل صحته وحيوته، وشاع هذا المنام، وذاع بين الناس، مما كتب لهذه القصيدة الذيوع والانتشار.

أسماء قصيدة البردة:

1. البردة، وهي أشهر أسمائها، قال الباجوري: وإنما اشتهرت بذلك لأنه لما نظمها بقصد البرء من داء الفالج الذي أصابه فأبطل نصفه حتى أعجز الأطباء رأى النبي

صلى الله عليه وسلم في منامه فمسح بيده الكريمة عليه ولفه في بردته فبرأ لوقته كما ذكره الناظم في تعليقه.

2. البرأة، قال الباجوري: سميت بها البرأة لأن المؤلف برأ بها.

3. الكواكب الدرية في مدح خير البرية.

4. الكواكب الدرية في مناقب أشرف البرية سماها بذلك الشيخ جلال ابن قوام بن الحكم كما في كشف الظنون.⁽⁹⁾

ولا شك أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى كما هو مشهور.

عدد أبيات هذه القصيدة

اختلف العلماء عن تحديد عدد أبياتها، فمنهم من قال أنّ عددها مائة اثنين وثمانين (182) بيتاً، ومن قال أن عددها مائة واثنين وستون (162) بيتاً، وقال بعضهم أن عددها مائة وواحد وسبعون (171) بيتاً، ولكنّ معظم النسخ الصحيحة اتفقت على أن عدد أبياتها مائة وستون بيتاً (160)، أولها:

أمنُ تذكر جيرانٍ بذي سلمٍ مزجت دمعاً جزي من مقلّة بدم

وآخرها:

ما رنحت عذباتِ البان ریح صباً وأطرب العيس حادي العيس بالنعيم

هذا هو المعروف المشهور، ومما يشهد على ذلك قول بعضهم:

أبياتها قد أتت ستين مع مائة فرج بها كرينا يا واسع الكرم⁽¹⁰⁾

دراسة وشرح وتوضيح أبيات البردة

والقصيدة من المطولات الشعرية، حيث أنها تقع في مائة وستون بيتاً،

وتتكون القصيدة من عشرة أجزاء رئيسية، هي:

- 1- التسيب النبوي 12-1
- 2- التحذير من هوى النفس 28-13
- 3- مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم 58-29

- 4- في الحديث عن مولده صلى الله عليه وسلم 71-59
 5- في الحديث عن معجزاته صلى الله عليه وسلم 87-72
 6- في شرف القرآن الكريم ومدحه 104-88
 7- في الحديث عن معجزة الإسراء والمعراج 117-105
 8- في جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وغرواته 139-118
 9- في التوسل والتشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم 151-140
 10- في المناجاة والتضرع 160-152

والقصيدة من المطولات الشعرية، لذا نختار أجزاء الثلاثة الأولى منها بالدراسة والشرح والتوضيح، تمثل الجوانب المختلفة التي أراد الشاعر أن يعبر عنها، ويركز عليها.

أولاً: النسب النبوي

أوله: أمن تذكر جيران بذي سلمٍ مزجت دمعاً جرى من مقلّة بدم
 وآخره: إني أهمت نصيح الشيب في عدلٍ والشيب أبعُد في نصح عن التهم
 استهل البوصيري قصيدته بهذا النسب النبوي الذي جاء في صورة هذا الغزل الطاهر البرئ ، فنلمح من خلاله نار تشوقه إلي معالم تلك الأراضي الطاهرة التي يحن إليها قلب كل مسلم ، فيجرد الشاعر من نفسه انسانا آخر ليخاطبه، متسائلا عن سبب هذا البكاء، وتلك الدموع المنهمزة، أهو تذكر الأحبة وأماكنهم، أم أن الريح جاءت من ناحيتهم، تحمل بعضا من عبيهم وشذاهم، فأثارت شجونهم، وأحيت ذكرياته عنهم؟

ففي البيتين الأولين براعة استهلال، وحسن افتتاح حيث ضمنهما ما يفيد أن هذه القصيدة في مديح الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، دون غيره من موضوعات الشعر الأخرى.

ويستطرد الشاعر في وصف حبه وهيامه، الذي لا يستطيع إخفائه وستر أمره عن أعين اللائمين، فمهما حاول التجلد والصبر، وتكلف إظهار الجلد

والقوة والتحمل، فلم يستطيع إخفائه، فعلامات المحبة والهيام تفضحه، وتكشف ماخفي من أمره، وكيف ينكر أمر هذا الحب والعشق بعد ما شهدت به مجموعة من الشهود والعدول، وكلهم يؤكد حقيقة هذا الحب، ويدل عليه، وهذه الشهود تتمثل في : هيمان الدمع- واضطراب القلب- وإراقة دمه علي الأطلال- وتمكن الحب من قلبه- وأرقه لذكر البان والعلم، فهل بعد هذه الأدلة يجد إنكار، أو يفيد تستر وإخفاء، فلو لالجب ما بكيت علي ديار الأحبة، وما استعصى عليك النوم، وخاصم جفنيك، كلما مرّ بخاطرك موطن حبك القديم.

ثم يعود الشاعر بعد أن اكتشف أمره، وأفصحت حاله عن حبه وهيامه، فيطلب المезде، وعدم المؤاخذة لهذا الهوى، فلو أصابك أيها العازل مأصابني، وحلّ بك ما حلّ بي، لم تظلمي بهذا اللوم، ولأنصفت، وعدلت فلم تلم، لأنه ليس هناك اختيار في الحبّ، ثم يدعو علي لائمه هذا بأن يصاب بما أصيب به حتي يعذره ، ويكف عن لومه.

ثم يعترف الشاعر للائمه بما أسداه إليه من النصح، ولكنه لم يستمع إليه، ولم يلتفت الي نصحه، وهذه شيمة من يتمكن الهوى والحب من قلوبهم، فلا يصبغون لنصح، أو يستمعون إلي عازل، إن الحب عن العزال في صمم، فوفر عليك نصحك، فلن أستجيب لك أبدا، لأن حب الله ورسوله قد تمكن في قلبي، وخالط لحمي ودمي.⁽¹¹⁾

ثانيا: التحذير من هوى النفس

أوله: فَإِنَّ أَمَارَتِي بِالسُّوءِ مَا أَعْظَتْ
من جهلها بنذير الشيب والهزم

آخره: ولا تزودتُ قبل الموت نافلةً
ولم أصلّ سوى فرضٍ ولم اصم

في هذا القسم من القصيدة يصور الشاعر النفس الانسانية، ويحذر من هواها، فجاءت أبياته موفقة فكريا وصياغة، فهي تعكس الصراع بين الانسان ونفسه، وتمثل معاناته الشعورية أصدق تمثيل، وحديث الشاعر عن شيبه وهرمه، يدل على أنه نظم البردة في مغرب حياته، ولذلك جاءت حافلة بالعاطفة

الصادقة، والإخلاص المتين، واحتوت على خطرات نفسية على جانب كبير من الأهمية، فقد تحدث البوصيري عن فساد نفسه، وإنصرافها عن دعوة الحق، وتقصيرها في أداء الواجب، علي الرغم من ظهور الشيب برأسه، وتمكن العجز من أعضائه، ولكن النفس لم ترتعد عن غيبها، ولم تكف عن جهلها، وتحد من إنطلاقها وراء الشهوات والملذات، ولم تعد العدة لاستقبال هذا الشيب الذي غزا شعر رأسه، وذلك العجز الذي دبّ في جسده، فهل من معين علي كبح جماح تلك النفس المتمردة، النافرة؟ ومن معين يلجمها كما تلجم الخيل؟ ولن يكون ذلك بالاسترسال في المعصية، والاندفاع وراء الشهوات الفانية، فذلك لا يزيدها الا نهما، ويقوي من اندفاعها نحو الشر، ويؤدي بها نحو الهلاك، فان أردت النجاة فلاتنصت إلي هذه النفس، ولا تستجب لنوازعها، وخالفها هي والشيطان على طول الخط، ولا تأمنهما، أو تركز لنصحهما، مهما حاولا أن يظهر لك، من الودّ والمحبة، فلن يصدقانك النصح أبدا، لانهما ألدّ أعدائك في الحياة، فكيف يخلصانك النصح والارشاد؟ وكيف تطمئنّ إليهما؟ فكن معهما على خلاف دائم، فالنفس أمارة بالسوء، والشيطان عدوّ مبین للإنسان- بتصديق قول الله تعالى. كما يحدّرنّا الشاعر في نهاية البيت، من أن نكون من الذين يقولون مالا يفعلون، فذلك اشنع شئ يتصف به المؤمنون، مصداقا لقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾⁽¹²⁾، ولحديث رسوله صلى الله عليه وسلم (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا).⁽¹³⁾

ثالثا: مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم

أوله: ظلمتُ سنّةً منْ أحيا الظلام إلى إن اشتكتْ قدماه الضّر من ورم
آخره: لا طيب يعدلُ ترَبًا ضمّ أعظمه طوبى لِمَمْتَشِقٍ مِنْهُ وَمَلْتَمِمْ
في هذا الجزء من القصيدة يتحدث الشاعر عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم مادحا له، فيعرض أحواله، ويذكر قيامه الليل متهجدا، وكيف كان يشد احشاءه من الجوع تحت الحجارة، وشممه وعزة نفسه حين روادته الجبال أن

تكون له ذهباً، ثم ينتقل الشاعر إلي ذكر بعض من شمائل الرسول الكريم، محمد سيد الأرض والسماء، وأفضل الإنس والجن، وأشرف العرب والعجم، رسول الخير والحق، دعا إلي الهدى والبر، ونهى عن الباطل والشر، فهو أصدق القائلين في نفي وإثبات، وهو الشفيع المشفع يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم الهول العظيم، فالمؤمنون به هم الناجون من أهوال ذلك اليوم المشهود، حيث سيسفح لهم عند ربه، فيقبل الله شفاعته فيهم، وذلك هو الفوز المبين.

لقد بدّ رسولنا الكريم الأنبياء جميعاً خلقاً وخلقاً، فلم يجاروه في جمال جسم، ولم يباروه في كمال خلق، ولم يبلغوا مبلغه في سعة علمه، وفيض سخائه وكرمه، وكل ما وهبهم الله من فضل، فانما هو مستمد من فضله، فعظمته أكبر من أن يعبر عنها متكلم، مهما أوتي من علوم البيان، ورزق من فصاحة اللسان، لانها من عند الله الوهاب الذي اصطفاه واجتباها وفضّله علي سائر المخلوقات، وختم به الرسل والأنبياء، وجعل شريعته ناسخة لكل ما سبقها من الشرائع، وقد أوتي الكثير من الفضل والنعم التي لم يعطها نبي من قبله، ففاق الخلق جميعاً، مع أنه بشر مثلهم، ومن بنى آدم، وهذا إدعي إلي عظمته وتفوقه، فهو من البشر، لكنه فاقهم جميعاً في كل شيء، وذلك هو مناط العظمة فيه، ودليل واضح على سمو مكانته، وعلو منزلته عند الله، فهو صفيه وحببيه، ونبيه ورسوله إلي الناس أجمعين، فامدحه وأعطه حقه من الإجلال والتكريم والتعظيم، بشرط أن لا تتجاوز الحد، وتقع فيما وقع فيه النصارى عندما ألّوا عيسى بن مريم، وجعلوه شريكاً لله في الألوهية وبعد ذلك صفه بماتشاء، وأمدحه كما تريد بصفات المجد والعظمة، ولا تبخل عليه بشيء من الشرف والسؤدد، فعظمة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم لا حد لها، ولا يستطيع انسان مهما أوتي من بيان وبلاغة أن يأتي عليها، لأنه فاق الخلق بما حباه الله به من فضل وعطاء.⁽¹⁴⁾

الخصائص الفنية للقصيدة:

1- المذهب الفني للشاعر

لم يتكرر البوصيري هذا الفن الشعري، ولم يكن أوّل من أنشده، وإنما سبقه علي هذا الطريق مجموعة من الشعراء المتقدمين الذين نظر اليهم الشاعر، وحاول أن يقتدى بهم، ويجذو حذوهم، ويفيد مما قدموه في هذا المجال منذ حسان بن ثابت رضى الله عنه حتى عصر المماليك.

وأغلب الظن أن البوصيري قد تأثر شاعرا صوفيا كبيرا، هو ابن الفارض، المتوفى عام 632هـ، فاستأنس عند نظمه هذه القصيدة بقصيدة مشهورة لابن الفارض، وهي "ميميته" التي قال في أولها:

هل نار ليلى بدت ليلا بذي سلم أم بارق لاح في الزوراء فالعلم
أرواح نعمان هلاّ نسمة سحرا وماء وجرة هلا نحلة بفم

وقال البوصيري في مطلع قصيدته:

أمّنْ تذكر جيرانِ بذي سلمٍ مزجت دمعاً جرى من مقلةٍ بدم
أمّ هبّت الریح من تلقاء كاظمةٍ وأومض البرق في الظلّماء من إضم
فذو سلم، وهبوب الريح، وإيماض البرق مما اشترك فيه الشاعران مع وحدة الوزن والقافية، مضافا الي هذا أيضا، أن البوصيري قد عارض ابن الفارض، وحذا حذوه في بعض معاني هذه القصيدة، فاذا قال ابن الفارض:

يا لائما لامني في حبهـم سفها كفّ الملام فلو أحببت لم تلم
فتابعه البوصيري قائلا:

يا لائمي في الهوى العذري معذرة مني إليك ولو أنصفت لم تلم⁽¹⁵⁾
وغير ذلك من المعاني التي تابع فيها البوصيري ابن الفارض في ميميته، ولا يعني هذا أنه لو لا ميمية ابن الفارض ما كانت بردة البوصيري، فقد نظم البوصيري قصيدته في ظروف صحية خاصة به، وكان لا بد له من أن ينظمها كل

ما هنالك أنه كان يحفظ ميمية ابن الفارض كما كان موجبا بها، فجرى في بردته على منوالها وزنا وقافية، ومدحة نبوية شافية.

مما تقدم يمكن أن نقول: أن البوصيري قد تأثر في إنشائه لبردته ابن الفارض في ميميته، وقد ظهر أثر هذا التأثر في ناحيتين، هما:

الأولى: في بعض المعاني الصوفية التي تناولها ابن الفارض، وتابعه البوصيري فيها، وحذا حذوه في تناولها.

الثانية: في هيكل القصيدة بشكل عام، حيث أخذ الوزن الذي جاء من البحر البسيط، كما أخذ الروي أيضا، فكان حرف الميم، ولكن جاءت ميمية ابن الفارض في ثمانية عشر بيتا في الوقت الذي وصلت فيه قصيدة البوصيري مائة وستين بيتا، فميمية ابن الفارض خيط قصير، في النسيج الطويل للبردة.

2- الألفاظ والأساليب

نعرض أسلوب الشاعر فيها من حيث الألفاظ والتراكيب، والموسيقى، والأخيلة والصور:

أ - لو حاولنا تقويم ألفاظ الشاعر وتراكيبه الأسلوبية، لوجدناه علي الرغم من تكلفه أحيانا للبديع - وذلك داء عصره الذي لم يستطع التخلص منه - يجمع في أسلوبه كل سمات الجمال الأسلوبي من حيث العذوبة، والرقّة، والفخامة، مع السهولة السلاسة حتى يصل في بعض الأحيان إلى السهل الممتنع.

ب - أما تراكيبه وصوره ومعانيه، فقد اعتمد فيها علي الأساليب العربية الأصيلة التي اقتبس منها الكثير من التراكيب والمعاني، فاستمد العديد من مآثور المعاني عند كل من البحترى، وأبي تمام، والمتنبي، وابن الفارض وغيرهم من الشعراء المتقدمين.

كما اقتبس من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والقصص الإسلامي، والسيرة النبوية المطهرة، وظهر أثر ذلك واضحا في العديد من أبيات القصيدة، من أمثال قوله:

فإنَّ أمارتي بالسوءِ ما أتعتُّ من جهلها بنذير الشيب والهزم
وهذا يذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا
مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (16)
ومثل قوله أيضا:

دعا الي الله فالمستمسكون به مستمسكون بجبل غير منفصم
وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ (17)
وغيرها الكثير من المعاني التي اقتبسها البوصيري من القرآن الكريم،
والحديث النبوي الشريف، والسيرة النبوية.

3- الموسيقى

لقد اختار البوصيري لقصيدته وزن البسيط التام المخبون، والمعروف أن
هذا البحر أحد أبحر ثلاثة، قد كثر دورانها علي ألسنة الشعراء في مختلف العصور،
وهي الطويل والبسيط والكامل.

كما اختار لها روى الميم المكسورة، فساعده هذا الوزن والروى علي
إطالة نفسه في هذه القصيدة حتى بلغت أكثر من مائة وستين بيتا، ولا بد لنا من
أن نذكر أن هذا الوزن، والروى الميمي، وحركته المكسورة، كان له أثره الواضح
عند شعراء البديعيات النبوية مما جعلهم يحافظون عليهما، ويلتزمونهما في
معارضتهم لبردة البوصيري التي ضمنوها بديعياتهم المختلفة.

يضاف إلي ذلك ظهور الجرس الموسيقي لهذا النص، فطبيعة هذا الوزن
أولا، وإئتلاف الألفاظ والتراكيب ثانيا، ثم إشباع حركة الروى المكسورة في القافية
ثالثا، كل ذلك ساعد على هذه التموجات الموسيقية التي تشتد حيناً، وتلين حيناً
آخر، بين أسلوب خبري، وآخر طلي منفعل، مما أكسبها هذا اللون الموسيقي
الجداب. (18)

4- الجانب التصويري

أما الجانب التصويري ، فنراه ينصب علي الناحية المعنوية، وفي بعض الأحيان علي الناحية الحسية، فنفس الشاعر منطلقة مع أهوائها، منصرفة عن سنة نبئها، والشاعر محبّ والده، يشكو ألم الفراق حتى خالطت دموعه دمه، ويدعو عينه إلي الكفّ والتوقف عن البكاء، فتغرقان فيه، ويدعو قلبه إلي أن يفيق من حزنه وألمه، فيزداد هياما وتعلقا.⁽¹⁹⁾

لقد لجأ الشاعر إلي كثير من الصور البيانية، فكثف عن النفس بالأمانة بالسوء، وعن الشيب بالضيف، الذي ألم برأسه في غير احتشام، وعن قيام الليل بإحياء الظلام، وعن الجهاد، ونشر الدعوة، والتفاني في العبادة بورم القدمين. كما يشبه الفعل الجميل بالقوى، وردّ جماع النفس بكبح جماع الفرس، وتغذية المعاصي للشهوات، بتقوية الطعام للنهم إلي آخر هذه التشبيهات التي نجد في بعضها مدى قدرة الشاعر التعبيرية التي مكنته من التشخيص والتمثيل، والتجسيد لهذه المعاني المجردة، وتحويلها إلي أشخاص، وذوات أجسام، تحسّ وتتحرّك، وتعي وتفهم، وتدرك كل ما يدور حولها، في مثل قوله: "والنفس كالطفل"، "وأحياء الظلام"، و"قرى ضيف ألم برأسي غير محتشم" إلي آخر هذه المعاني التي تضمنت الكثير من التشبيهات، والاستعارات في الأبيات الكثيرة التي لم نذكرها، وأسرفت في إستعمال هذه الصور والأخيلة التي حفلت بها هذه القصيدة.

5- فن الملاحم

هام كثير من المحدثين بقصيدة البردة، وأعجبوا بخيالها الشعري الوثاب، وعدّوها ضربا من الملاحم الشعرية التي افتقدها الشعر العربي القديم، وإعتبروا البوصيري رائدا في هذا المجال، حيث أسهم بقصيدته هذه في سدّ ذلك الفراغ، وأكمل بها هذا النقص. وقد أشار إلي ذلك الأديب المغربي الكبير الأستاذ عبد الله كانون، فقال يوضح العلاقة بين الملحمة والبردة: (هذا فن من الشعر يكاد

أدب الفقهاء يمتاز به فيدفع الوصمة عن الأدب العربي التي يلصقها به كثير من النقاد حين يتحدثون عن خلوه من الملحمة، ومن الشعر القصصي في الجملة). ويستطرد ذلك الأديب في حديثه قائلاً: (وهل تقاس معلقة عمرو بن كلثوم مثلاً بقصيدة البردة، وما اشتملت عليه من فنون القول، كالنسيب الذي يرقق الطباع، والحكمة المزكية للنفس، والإعلان عن مولد صاحب الدعوة الإسلامية، وما صحبه من الآيات العظيمة، والعجائب الغربية ما صحّ منها، وما يروى عن طريق الرؤى والتجليات، لأن للخيال الشعري أكثر مما هو للتحقيق العلمي . ثم ذكرت جهاده صلى الله عليه وسلم بعد النبوة لإعلاء كلمة الله، ومالاقه من المشركين من مقاومة وعنت وأذى، وما أبداه المؤمنون به، من استماتة في نصرته وتأييده حتى انتصر الحق، وعلت كلمة التوحيد علي خرافات الجاهلية، وانطلق المارد العربي إلي فتوحاته شرقاً وغرباً لتوطيد سيادة ذلك الدين علي العالمين).⁽²⁰⁾

وهكذا يرى ذلك الأديب أنها ملحمة عربية تردّ علي الذين ينكرون أن توجد الملاحم في أدبنا العربي.

ونستطيع أن نقول أن هذه القصيدة تحمل كثير من الخصائص، والعديد من العناصر الملحمية، لكنها لاتصل إلي مستوى الملحمة الكاملة بمفهومها الفني الذي عهد عند الإغريق والرومان كما جاء في "إلياذهوميروس" و"إينادة فرجيل" وغيرها من الملاحم التي جاءت فيها العناصر الملحمية كاملة. قيمتها الأدبية

لم تحظ قصيدة شعرية بما حظيت به البردة، حيث تنافس الناس في حفظها، وأكثروا من ترديدها في مجالسهم، وأقبل الشراح يشرحونها، والشعراء يعارضونها، كما شطروها وخمسوها وسبعوها وتفننوا في ذلك حتى نشأ فن شعري جديد سمي بالبديعيات جاء علي هديها ونسقتها، وصار من الموضوعات الشعرية الشائعة في عصر المماليك، واستمرت معارضتها حتى العصر الحديث.

ومما يؤخذ على البوصيري أنه طبع برده بطابع عصره، فغلب عليه الإكثار من المحسنات البديعية، كما تجلّى فيها شئ من آثار الثقافة النحوية واللغوية التي كان يجلو للشعراء أن يزينوا بها قصائدهم دون أن يدروا أنها تهوى بفنهم إلى درك من الضعف والتقهقر، لقد حاش البوصيري برده، وشعر المديح النبوي بألفاظ النحويين.

الخاتمة:

ومن هنا، نخلص إلى أن البوصيري قد نظم هذه القصيدة لحصول التقرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليحظى بشفاعته، ولكنها أصبحت حالياً من أعظم القصائد في الشعر العربي التي تفوقت منزلة الأدب العربي، وأصبحت نموذجاً للشعراء الذين جاءوا بعد البوصيري في العصور المختلفة حتى العصر الحديث، والدليل على ذلك، معارضة شعراء المشهورين لقصيدة البردة، ومن أشهرها معارضة الشاعر الوطني المصري الملقب بأمير الشعراء أحمد شوقي في " نهج البردة" ، ومعارضة البارودي في قصيدته، وغيرهم، وهذا الاهتمام بالبردة يدلنا على أن البوصيري كان متفوقاً على غيره من الشعراء من حيث الشعريّة والاستعداد الطبيعيّ لقول الشعر فهو لديه طبع متدفق للإبداع الشعريّ يتقن الصنعة والصناعة الشعريّة ليصل إلى أعلى درجات الإتقان والكمال مما حدا بالآخرين اتباعه وتقليده .

ونضف إلى هذا، أن هذه القصيدة تعبر عن حقائق ثابتة، لا دخل للخيال أو الخرافة فيها، فهي تتحدث عن حياة الرسول الأعظم، وتبين صفاته وفضائله، وكلها وقائع حقيقية، بعيدة تماماً عن الخيال أو الوهم.

وننتهي هذا بكلام مفيد من أحد كبار العلماء البارعين في العالم الاسلامي في عصرنا الحاضر، الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم (رئيس جامعة الأزهر الأسبق) وهو يقول عن قصيدة البردة: (وكانت أعظم قصائده، وأروع فرائده، درة الشعر الفصيح بُرّة المديح، التي لم يشبهها سابق، ولم يقترب منها

لاحق، وكم قصائد ألفت على غرارها ونهجت طريقها، ونسجت على منوالها، ولكنها لم تصل إلى رتبة بردة البوصيري).⁽²¹⁾

الهوامش والمصادر

1. مبارك، دكتور زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، (القاهرة: طبعة دار الشعب ، 1971م)، ص 215 .
2. الكتي، ابن شاعر الكتي، فوات الوفيات (بيروت: دار صادر، 1974م)، ج 3، ص 369-362
3. أبو سعدة و حسن ذكري، أ.د. شفيق أبو سعدة و أ.د. حسن ذكري، من قلائد الأدب " العباسي - المملوكي-العثماني"، (القاهرة:كلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر، طبع 2007م)، ص 244.
4. عمر الشافعي، عثمان ابن عمر الشافعي، التحفه في نشر محاسن البرده، ص 21-22، موقع إلكتروني: www.alnujuum.com/view.php?id=28
5. المرجع السابق، ص 17-18، موقع إلكتروني: www.alnujuum.com/view.php?id=28
6. الكتي، ابن شاعر الكتي، فوات الوفيات، ج 2، ص 314
7. العكري الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (القاهرة: دار ابن كثير، 1986م)، ج 5، ص 432
8. مبارك، دكتور زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي ، ص 196
9. عمر الشافعي، عثمان ابن عمر الشافعي، التحفه في نشر محاسن البرده، ص 25، موقع الإلكتروني: www.alnujuum.com/view.php?id=28
10. المرجع السابق، ص 26، موقع إلكتروني: www.alnujuum.com/view.php?id=28

11. أبو سعدة و حسن ذكري، أ.د. شفيق أبو سعدة و أ.د. حسن ذكري، من قلائد الأدب " العباسي - المملوكي-العثماني"، ص 251-252
12. سورة الصف:3
13. أبو سعدة و حسن ذكري، أ.د. شفيق أبو سعدة و أ.د. حسن ذكري، من قلائد الأدب " العباسي - المملوكي-العثماني"، ص 257-258
14. المرجع السابق، ص 269-270
15. المرجع السابق، ص 275-276
16. سورة يوسف، الآية/53
17. سورة البقرة، الآية/256
18. أبو سعدة و حسن ذكري، أ.د. شفيق أبو سعدة و أ.د. حسن ذكري، من قلائد الأدب " العباسي - المملوكي-العثماني"، ص 278-279
19. المرجع السابق ، ص 280
20. المرجع السابق ، ص 281-282
21. عمر هاشم ، د. أحمد عمر هاشم، بردة المديح المباركة، (القاهرة:دار المقطم ، 1995م)، ص7